التواريخ العربيّة

كل أُمة لا تخالط تجاوريها ولا تقتدي بالمفلحين من معاصريها وسابقيها تستحوذ عليها الجهالة وكذلك قلما يفلح من لا يتبصّر بالحوادث الخالية ليقيس عليها الحالية ويتاع تجارب غيره صبرةً واحدة ويقف على ما ادّخرتهُ صروف الدهر لابنائهِ وكيف تغلبوا على المصاعب حتى صافحوا انامل السعادة واي الطرق سلكوا للتجانف عن موارد الشقاء وبالاجمال كيف كانت حالهم في المَنْشَط والمكْرَه والإعسار والايسار

واحقّ العلوم التي تتكفّل برفع الحجاب عن تلك الاحوال الغامضة هو علم التاريخ الذي حدّهُ شيشرون خطيب الرومان بانهُ "شاهد الازمنة والحقيقة مدرسة الحياة رسول السالف الى الخلف" وان شئت فزد عليهِ استاذ الملوك والرعايا وقائدهم الى مناهج السّداد

ولقد اجمعت الامم على ان للتاريخ شأناً خطيراً بين علوم الاجتماع وما البراهين القائمة على فائدتهِ بقليلة وتكفي منها واقعة رئيس الرؤساء ببغداد لما اظهر اليهود رسماً قديماً يتضمن ان الرسول عليهِ الصلاة والسلام امر بإسقاط الجزية عن يهود خيبر وفيهِ شهادة جماعة من الصحابة فعُرض على الحافظ ابي بكر الخطيب فقال انهُ مزوَّر فقيل لهُ بمَ عرفتهُ فقال فيهِ شهادة معاوية وهو انما اسلم عام الفتح سنة ثمانٍ للهجرة وخيبر فُتحت سنة سبع وفيهِ شهادة سعد بن ابي وقّاص وهو مات يوم قُريظة قبل فتح خيبر. فسُرّي عن الناس بذلك بعد ان عظمت حيرتهم

ولقد ظلّ التاريخ قروناً مشتت الشوارد والاوابد مشوش المبادي والمقاصد شأن معظم العلوم اول نشأتها حتى اذا توفرت الاخبار والآثار احتيج الى تدوينها ليكون في الماضي لمن بقي اعتبار وامست الحوادث العريقة في القدم نسياً منسيّاً لتطاول العهد بها

كان قدماء المؤرخين يثبتون الحادثة وزمانها ومكانها واشخاصها ويهملون ارتباط الوقائع بعضها والنسبة بين الامم والدول وكيفيّة الاختلاط والاجتماع. ولما هبّ الاوربيون من رقدة الجهل وفّروا العناية بالتاريخ على اختلاف الوانهِ واشكالهِ وصرفوا وكدهم كشفاً لما بطن من الكائنات وضاع من الحادثات فساعدتهم على نيل المآرب تلك المحفورات والنقود وورق البردي التي عُثر عليها في بعض انحاء المشرق وكانت سالمة من الشوائب اذ لم يكن يمسها ما يغيّر من حالها. ويُعيد ان حلّ الاثريون الكتابات الاشوريّة والبابليّة والمصريّة واليمانيّة وكانت مخطوطة بلغات انقرضت هي والعارفون بها ظهر كثير من مكاتيم الايّام وضائعات الحادثات

وما القصد هنا الالمام بحال التاريخ عند الامم السالفة كالمصريين والكلدانيين والآشوريين

والبابليين والفينيقيين واليونان والرومان او الامم الخالفة من شرقيين وغربيين بل الالماع الى حالهِ عندَ العرب لانهم كانوا خير رابطة بين عصر يونان الاسكندرية والدول الاوربية الحديثة ولانهم احتفظوا لما زها ملكهم بعد سقوط مملكتي فارس والروم بمصنفات مَن قبلهم واليونان منهم خاصة ونقلوها الى لسانهم ومنها اقتبس الافرنج لما فقد الاصل فكان العرب اساتذة منْ بعدهم من الشعوب الراقية وان كان من التلامذة مَن يفوقون اساتذتهم

أُولع علماء العرب قديمًا بدراسة التاريخ حتى ان الامام الشافعي اقام على تعلمهِ والادب عشرين سنة وقال ما اردت بذلك الاَّ الاستعانة على الفقهِ ولا عجب فلولا التاريخ ما عُرفت الاديان والمذاهب لكن المجيدين المحققين قلائل وهم بالاجمال في المتقدمين من العرب اكثر منهم في المتأخرين بخلاف الامم الغربية

فممن انتحلهُ من الاعلام عند العرب الطبري والذهبي والبخاري والكلبي وابن تيمية وعبد اللطيف البغدادي وابن عساكر وابن خلدون وابن الخطيب وابن حجر وابن النجار وابن شاكر وابن شهبة وابن السباعي وابن الاثير وابن سلامة وابن البواب وابن الفرات وابن خلف وابن بشكوال وابن عربشاه وابن اياس وابن خلكان وابن الكتبي وابن العمري وابن العميد وابن اسحق وابن الوردي وابن عباس وابن الجوزي وابن دينار وابن العبري وابن بطريق وابن ابي أُصيبعة وابو الفدا وابو شامة وابو نعيم وابو المحاسن وابو الفرج والفخري والقرطبي والبلاذري والعبدي والصولي والمسبحي والصدفي والصابي والمراكشي والمقريزي والواقدي والسيوطي والنويري والصفدي والسخاوي والغزي والمسعودي والقرماني والمحبي والرازي والنجار والجبرتي والسمعاني وعشرات غيرهم ممن كان التاريخ من جملة علومهم وربما اشتهروا بغيرهِ وصنفوا فيهِ التصانيف الممتعة التي سرد منها صاحب كشف الظنون الفًا وثلثمائة تاريخ منوعة. قال صاحب النتائج ان منها خمسة عشر مصنفًا حسنة الترتيب قليلة الكلام على الحوادث التاريخية القديمة ينبغي ان تدرس في المدارس لكنها خلت عما يلزم في التاريخ من الربط المعنوي

واذ تصدّى الاعاظم لتسطير الحوادث خشية ضياعها جاءت مكتوباتهم بالنسبة لعصورهم حسنة في بابها الاَّ انهُ ينتقد على بعضهم ما وقع فيهِ مؤرخو الامم السائرة من الانقياد للدين وهو عيب عام في جماع المؤرخين من متقدمين ومتأخرين فيحملون على مخالفيهم في معتقداتهم حملة منكرة يغمطون حسناتهم ويقلبونها سيئات وكثيرًا ما يطعنون في انسابهم ويرقعون بهم الغميزة والنقيصة وان كانوا لا يستحقون في الواقع ونفس الامر الاَّ المحمدة والثناء وبالعكس يموّهون في سيئات ابناء دينهم ويحاولون صبغتها بصبغة الحسنات

ولا تتصرف عبارات الواقدي في فتوح الشام بشأن الروم والانحاء عليهم باللعنات الاَّ على التعصب وليس هو وحده سقط في هذه المهاوي فان لهُ اضرابًا من مؤرخي القرون الوسطى من الفرنجة الاولى رموا الكلام على عواهنهِ ونقولوا على الاسلام والمسلمين وحوادث الصليبيين بما لا يسوغ عدّهُ الاَّ في باب الخيالات والترهات[1] كأنهم لا يرون من الدين ان يكتب الانسان بصدق واذا لم تشم من المؤرخ رائحة المعتقدات شقَّ ذلك على قومهِ وعدوهُ مارقًا ساقطًا

وهذا ما دعا طلاَّب الحقيقة في هذا العصر ان لا يثقوا بما كتب في القرون السالفة عن كوائن الصليبيين وحروبهم فذهبوا الى ان اخبارها لم تُمحص بعد فلا هم يريدون نقلها عن مؤرخيهم والاستسلام لآرائهم لما عرفوا من تعسفهم ولا هم يثقون بمؤرخي العرب لما انهم سقطوا في ما سقط فيهِ مؤرخوهم انفسهم كيف لا وقد خلط بعض كتاب العرب فلم يميزوا ان جيوش الصليبيين التي دهمت الشام ومصر كانت متنوعة الاجناس واللغات والعارف منهم من يسمي ريكاردس قلب الاسد ملك انكلترا "ملك الانكتار" ولم يدر ما اسمهُ الحقيقي مع قربهِ من صلاح الدين او يستريح فيطلق على الجميع لفظ الافرنج والعلوج او الكفار

وما ينتقد على المورخين من نعرة الدين ينتقد ما يملونهُ بلسان العصبيَّة والجنسيَّة والوطنيَّة لانها تفسد التاريخ فلا تبقي من جوهرهِ اثرًا ضئيلاً ولا رسمًا محيلاً فيعمى من يميل مع واحدة عن معايب قومهِ او يتعامى . فاذا ذكر حربًا نشبت بين امتهِ وجارتها اعطى الحق بجملتهِ الى امتهِ واسجل بانها محقة وعدوّتها محقوقة يشمت بقهر هذه ويغالي بانتصار تلك ولا يستكبر هزيمة قومهِ مهما جلت ويخوض في التهويل بما اوقعتهُ امتهُ بجارتها . كأن التاريخ ليس الاَّ سرد اقاصيص مدخولة يتوقع منها ان تروق في اعين من كتبت لهم وتستدعي إعجابهم وطربهم لا حقائق راهنة يثبتها كاتبها للعبرة بها والتنصح بمفهومها

ولعلَّهُ يعد في باب الوطنية تجافي مؤرخي العرب عن ذكر حوادث مجاوريهم من الروم والفرس والحبشة دع عنك مَنْ في القاصية من الامم واقتصارهم منها على جمل متقطعة اذ اختصوا تواريخهم بشرح احوال دولهم وبلادهم واشخاصهم فلم يصلح ما كتبوهُ الاَّ ان يُدعى تاريخًا للمسلمين لا تواريخ كلية عامة تُعنَى بهم كما تُعنى بغيرهم . او يُفسَّر ذلك بانهم احتقروا من عداهم فلم يسعوا الى إشغال صفحاتهم باخبار عداتهم . او انهم آثروا الراحة على البحث ورأوا من الاحرى الاكتفاء بما وصلهم من اخبار دولهم وبلادهم وتلقوا اخبار غيرهم عن اهل

(١) راجع كتاب الاسلام (خواطر وسوانح) للكنت هنري دي كاستري لمعربهِ احمد فتحي بك زغلول المطبوع في مصر

القوافل والمكّارين والجمّالين فجاء اكثرها غثًّا عاريًا عن الفائدة التاريخية . كأنهُ يكفي المؤرخ ان يسطّر ما يتراءى لهُ امام قِطرهِ دون ان يضرب في مناكب الارض ليحيط خُبرًا بحال الشعوب والامصار ويتحرّى في البحث عن معنويّاتهم وماديّاتهم

وغير نكير ان الامانة والعلم وهما الدعامتان اللتان يستند اليهما التاريخ تقضيان على كاتبهِ ان يتجرّد فيما يثبت عن كل ما يخلّ بشرف غايتهِ . ولكن قلّ في البشر من خلص من معايب ومعايز تضرّ بجوهر الغرض

وممّا يسقط المؤرخ فيهِ طوعًا او كرهًا عِلمهُ وتربيتهُ فلطرف من وراثهما اعظم زاجر ودافع في اطوار حياتهِ . والمحيط حاكم متحكم على الانسان في اخلاقهِ وافكارهِ بحيث يعتقد الوهم صدقًا والصدق كذبًا بحتًا . فمن تأثير البيئة او المحيط مغالاة مؤرخي العرب في تصوّر معنى الجن وايراد الاعجوبات لهم وذكر ما يخالف المحسوس من امرهم وقد كانوا يعتقدون ذلك في الجاهليّة ولم يكن الاسلام ليمحو هذه الاوهام من نفوسهم . والجهل بنواميس الطبيعة واحوال المجتمع الانساني حمَلَ كثيرين من المؤرخين على الاعتقاد بوجود عوج بن عنق او عوق وضخامة جثتهِ فرووا لهُ عن الاسرائيليات ما يكذبهُ العيان وينفيهِ المشاهَد

والجهل حدا مؤرخي اليونان الى مجاراة اهواء عصورهم ومتابعة خرافات جيلهم وقبيلهم . والجهل ساق مؤرخي الرومان الى الاعتقاد بانّ لهم اصلاً سماويًّا فشحنوا مصنّفاتهم بما جادت بهِ قرائحهم من الخزعبلات والترهات . والجهل قضى على بعض مؤرخينا ان يذكروا ان والد الاسكندر ذي القرنين كان يحمل الى دارا ملك الفرس كل عام بيضًا من ذهب خراجًا ولم يبينوا لنا تلك الدجاجات (الفراخ) التي باضت تلك البيوض . ومثل ذلك قل عن مغالاتهم في توسيع الارقام ووصف القوى والرجال ومئات من الامثلة التي وقع فيها الافرنج والعرب على السواء والمّ بعضها ابن خلدون في مقدمتهِ عند ذكر مذاهب التاريخ وما يعرض للمؤرخ من اوهام ومغالط

واما الخوف من بطش الظلمة ورقاعات الجهلة فهو هو مستجمع تلك النقائص ومستوبل هاتيك المشوّهات . وقديمًا لم يكن الامراء يستخلون الضغط على العقول والتلاعب بالعلم واهلهِ وما ذهب اليهِ بعض من كتب على العرب من الفرنجة من انهُ لم يكن لمؤرخيهم الحريّة في اظهار الحقائق التاريخيّة مخافة ان يتربّص بهم حكامهم الدوائر اذا دوّنوا ما لا يرفع شأنهم فهو كلام فيهِ نظر ومجمل يحتاج الى تفصيل ينقضهُ ما عُرف من حريّة العلم والتأليف على عهدهم

ومن السفسطة ما يرتئيهِ كثيرون ايضًا من ان الدولة الاموية لم تكن من الاستبداد

بالدرجة التي وصفها بها المؤرخون لان معظمهم كانوا عباسيين ومكرهين ضمناً او علناً على الإشادة بمناقب خلفائهم وتكثير معايب مَن سلفهم تزلفاً ونفاقاً فهذا وهمٌ لا مسحة عليهِ من التحقيق. وربما يزيفون ايضاً ما رواهُ ابن تيمية وهو اعلم العالمين بتاريخ الاسلام من ان الجيش العباسي لمَّا هزم الجيش الأموي في احدى الوقائع التي قُضي بها على الامويين وجد في كل خيامهم دنان الخمر واقداح الراح . ومهما حاول امثال هؤلاء نقض ذلك فليس في المكنة تبرئة ساحة دولة ممَّا اجمع عليهِ الاباعد والاقارب وتناقلهُ سكان المشارق والمغارب . ولا مناص ممَّا قام عليهِ دليلهُ من نفسهِ فان كل خبر تسلسلت روايتهُ وتواتر تواتر مجيء موسى وعيسى ومحمد وابراهيم يُعدّ من قائل الرأي انكارهُ والقول بخلافهِ

وان الصادقين من الاخباريين ليحدثونا بان فساد الاخلاق لما استشرى اواسط الدولة العباسيَّة وانتشر ملوك الطوائف كثر التشيّع للاغراض فبيعت الضمائر بثمن بخس تزلفاً من الامراء والكبراء " واعوز الصدق في الاخبار والقسم " ومع هذا ظهرت حقيقة المحسن والمسيء على جليتها مطهرة مما غشيها وغم الوسائط التي لجأوا اليها تدليساً على من بعدهم. والحقُّ لا يخفى ولو لُبِّس عليهِ اعواماً وقروناً

قيل ان احد مؤرخي الاندلس ترجم في كتاب لهُ احد ملوكها بما لا يرضيهِ ونشرهُ في البلاد والمترجم لا يزال حيّاً قادراً فلما نمي الخبر اليهِ استشاط غضباً فاشار عليهِ ابنهُ ان يكل اليهِ قتل المؤرخ انتقاماً وعبرة فوبخهُ على هذا الفكر قائلاً يا بُنيَّ ان قتل المؤرخين يُعدُّ منقصة في الملوك فاذا قتلناهُ ونحن على ذلك قادرون سامت سمعتنا عند مجاورينا من الملوك وانتشر عنا قبح الاحدوثة بين رعيتنا ونحن لا نأمن ان يرمونا بكل كبيرة . والاحجى ان نبعث اليهِ بصرة من الدنانير ارضاء لهُ . فلما انفذ اليهِ مع رسول من قبلهِ صرّة تستقيل قلبهُ وضعت في ثيابهِ وهو داخل الحمام مع رقعة مضمونها ان من قدر على ايصال هذه الصرّة لك وانت لا تدري بها يهون عليهِ قتلك وهدر دمك فاتقِ الله فينا ولا تعد الى ما وسمتنا بهِ في تاريخك انفضَّ الخلاف بين الملك ومؤرخهِ فكفَّ هذا من غرب لسانهِ ولكن بعد ان ملأت نسيج تاريخهِ كل قطر ومصر وسارت حيثياً في البر والبحر

ومن ملوك الطوائف من كان يستعمل القسوة مع المؤرخين ويكرههم على كتابة التاريخ كما يشاء على نحو ما فعل عضد الدولة بن بويه لما ملك بغداد وسائر العراق بان أمر ابا اسحق الصابي الكاتب المشهور بتأليف كتاب في اخبار الدولة الديلمية يشتمل على ذكر قديمهِ وحديثهِ فامتثل امرهُ وسمى كتابهُ بالتاجي نسبة الى تاج الملك من القاب عضد الدولة واخذ يشتغل في

تصنيفهِ وينفق عليهِ من روحهِ . فرُفع الى عضد الدولة ان صديقاً للصابي دخل عليهِ فرآهُ في شغل شاغل من التسويد والتبييض فسألهُ عما يعمل فقال اباطيل انمقها واكاذيب ألفقها . فانضاف تأثير هذه الكلمة في قلب عضد الدولة الى ما سمعهُ من حقدهِ على ابي اسحق وتحرّك لها كامن ضغنهِ فامر ان يُلقى تحت ارجل الفيلة فاكبَّ جماعة من ارباب الديوان على الارض يقبلونها بين يديهِ ويشفعون اليهِ في امرهِ الى ان امر باستحيائهِ مع القبض عليهِ واستصفاء اموالهِ فبقي في الاعتقال بضع سنين الى ان تخلص في آخر ايام عضد الدولة وقد ساءت حالهُ وتهتك سترهُ

ومن المؤرخين من شايعوا رقاعات العامة الجهال وذهبوا مع كدورات تياراتها وحاذروا من القول بما يبعد عن التصورات الواطئة فاكثروا من ذكر الصالحين وتقديس اهل اليقين وخلطوا في مضاعفة كرامات الاولياء وتسطير مضحكات البلهِ وصقلها بطلاء يقرّبها من الحقيقة وأغرقوا في التأويل وطاوعوا وساوس الاغراب وصفّوا الاغبياء في مصاف العلماء مما لا ينكرهُ من طالع كتب التراجم خصوصاً الحديثة وحكّم العقل في المقال والمقول فيهِ

الا وان التاريخ الذي يرجع اليهِ هو تاريخ رجل عاقل عالم لا يميل مع ما يقال لهُ دين او وطنية او جنسية او عصبية ولا يصرح الاَّ بما يوافق المعقول ولا يخاف ظالماً ولا يرغب في مرضاة احد . ما التاريخ الحقيقي الاَّ ما كان ملؤهُ الفلسفة وحشوهُ التحقيق يبحث في الاخلاق والعادات والآراء والمذاهب ويأتي على اوائل اجتماع الامم وما كانت عليهِ احوالهم واصولهم ولغاتهم ومعايشهم وعقولهم وسياساتهم ومنازعيهم وفقرهم وغنائم ويدرس احلام مشاهير الناس ومناقبهم ومثالبهم التي اثّرت في بلادهم وما الداعي لتقدُّم المدنية والصناعات والعلوم

واول من كتب التاريخ على هذا الطرز ويسمى بالتاريخ الفلسفي او الادبي هو ابن خلدون فانهُ تفلسف في المقدمة على العمران وما يعرض لهُ وردّ الحوادث الى اصول كلية وضبطها بقواعد وروابط عامة ثابتة مع بيان اسبابها وغاياتها فكان واضع فلسفة التاريخ وعلم العمران في غالب الآراء وعلى اثرهِ مشى مؤرخو الافرنج . لكنهُ لم يحسن في تاريخهِ احسانهُ في المقدمة لانك تجد اشياء تؤخذ عليهِ قد يكون نصَّ عليها في مقدمتهِ ولعلهُ كتبها بعد الفراغ من تاريخهِ لما نضجت افكارهُ وكثر اختبارهُ على ان لهُ تاريخاً مطوّلاً لم يعرف فيما اعلم ولعلَّ فيهِ البلاغ

ومن اشهر تواريخ العرب تاريخ ابن جرير الطبري المدعو باخبار الملوك والامم وهو اقدم تاريخ بين الايدي والمعوّل عليهِ عند الحفظة الثقات كتبهُ الى سنة ٣٠٢ بما دل على سعة علم وحسن رأي وصدق في القول والعمل وقد حلاهُ برسائل الخلفاء والامراء والعلماء فجاء ملذّاً

في المطالعة منشطاً على التأمل وان اورثهُ ذلك تطويلاً بالنسبة لما يتطلبهُ اهل العصر الحاضر من الاختصار . ذكر ابن الجوزي ان ابن جرير بسط الكلام في الوقائع بسطاً وجعلهُ مجلدات وان المشهور المتداول مختصر من الكبير وانهُ هو العمدة في هذا الفنّ . وذكر ابن السبكي في طبقاتهِ ان ابن جرير قال لاصحابهِ هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم الى وقتنا هذا قالوا كم قدرهُ فذكر انهُ ثلاثون الف ورقة فقالوا هذا يفني الاعمار قبل اتمامهِ فقال انا لله وانا اليهِ راجعون ماتت الهمم وخمدت العزائم فاختصرهُ في نحو ما اختصر التفسير

ومن عاصر ابن جرير المسعوديّ صاحب مروج الذهب واخبار الزمان اما الاول فمعروف وقد ترجم الى بعض اللغات الاوربية واما الثاني وهو المعتمد عليهِ والمرجوع في المعضلات اليهِ فلا اثر لهُ هنا ولا في اوربا . وعبارة مروج الذهب واضحة المناهج متينة التراكيب وهو مرتب الاصول لو خلا من بعض ما شوّهُ المقدمة من الخرافات . اما ما يعيبهُ عليهِ بعضهم من نقص جغرافيتهِ فلا يعد الاّ كمالاً لان المسعوديّ المّ بكل ما عرف لعهدهِ من اطراف الارض . واسلوب الجغرافية قد انقلب في الاعصر المتأخرة ظهراً لبطن فما بالك بهِ منذ عشرة قرون . وكان المسعوديّ رحّلة الآفاق درس — كما قال سيديليو — تاريخ الرومان واليونان والامم المشرقية القديمة والحديثة ولهُ اطلاع واسع على اديان المجوس والوثنيين واليهود والنصارى والاسلام . وصل بتاريخهِ الى سنة ٣٣٢

ومن وُفر تاريخهُ في الصدور ونال الحظوة من الناس فعُدّ الحجة الثبت والأمين في الاستناء ابن الاثير صاحب تاريخ الكامل الذي وصل بهِ الى سنة ٦٢٨ وهو مرتب على السنين جمع الحادثة التي وقعت في اوقات متعددة في محل واحد — على ما نقل عن نفسهِ — مع ذكر شهورها وسنيها فأتت الحوادث الكبيرة متناسقة آخذاً بعضها برقاب بعض . جمع هذا المؤرخ شتات الاخبار الجارية في المشرق وتجرّد عن الغرض فجاء تأليفهُ كاملاً في بابهِ يغني عن تصفح المجلدات الضخمة البعيدة على المتناول على ما فيها من الاخلال والاملال واقتصر فيهِ على اللباب ولم يطرح العظيم من الكائنات ويتعلق بذكر الامور التافهات . ولو عُرّي صدرهُ من بعض ما لا يسلم بهِ مؤرخو هذا العصر من الحوادث المنقولة عن الاسرائيليات لكان بهِ اولى

واختصر الكامل ابو الفداء وزاد عليهِ التجددات بعد تاريخهِ. قال سيديليو ان ابا الفداء استمدّ تاريخهُ من كتب متوسطة الاعتبار ولا بأس بمراجعتهِ لاجتناء ثمرة التاريخ الاسلامي سياسيّاً كان او ادبيّاً وتاريخ امبراطرة اليونان اهل القرن الثامن والتاسع والعاشر للميلاد . وعبارة ابي الفداء موجزة مسبوكة تشف عما يكن صدر صاحبها من العلم العمراني والسياسي والطبيعي مات سنة ٧٣٢

واختصر ابن الوردي تاريخ ابي الفداء وزاد عليهِ ما شهدهُ من الحوادث الى سنة ٧٤٨ فاجاد كل الاجادة بحيث يصحّ إقراؤهُ لتلامذة المدارس فخلّوهم مما يشوش الذهن من التطويل المملّ وان تجرّد كسائر تواريخنا من ذكر الاسباب ومسبباتها . وابن الوردي من العلماء الامناء الذين لا يرقبون في الظلمة والجهلة الاَّ ولا ذمة

واشتهرت بعض التواريخ شهرة متوسطة كتاريخ البلاذري وتاريخ مصر لابن إياس وتاريخ الخلفاء للسيوطي وتاريخ القرماني وتاريخ ابن الشحنة وتاريخ العتبي في دولة محمود بن سبكتكين وتاريخ آل سلجوق للعماد الكاتب . وعبارة التاريخين الاخيرين على الإغراق في حسن سبكها عليها شائبة التكلف لما ان مؤلفيهما التزما فيها السجع وفنون البديع فمُمي على القارئ مغزى الحوادث التاريخيّة والفوائد السياسيّة

وتاريخ دمشق لابن عساكر هو على اسلوب المحدثين مطوّل باسانيدهِ واختلاف رواياتهِ وفيهِ الغثّ والسمين ولا ينجو المؤلف من تبعة ما حاول القاءهُ على قائليهِ من الحوادث التي لا يقبلها صغار اولاد المدارس لعهدنا . ولعلّ من اختصروا هذا التاريخ قديماً من العلماء كالذهبي حذفوا منهُ هذه الضلالات ولكن مَن لنا بتلك المختصرات

وجاء في المتأخرين بعض المؤرخين وافضلهم فيما احسب الجبرتيّ الذي كتب تاريخاً لمصر منذ الفتح الاسلامي مختصراً ووصل بهِ ما شاهدهُ من الحوادث الى سنة ١٢٧٦ يوماً بيوم وشهراً بشهر بعبارة سهلة لم يعاود تنقيحها فيما يظهر ولهجة يتدفق الاخلاص منها ممزوجةً بآرائهِ . وهو من العلماء المحققين عارف بالسياسة قريب من مصادرها ضليع من احوال بلادهِ وقومهِ . وقد كانت الامانة تقضي على من طبعوهُ ان لا يحذفوا منهُ القسم الخاص بمحمد علي الكبير واخبار الدولة التي عُني بتأسيسها في مصر لان فيهِ فوائد تاريخيّة لا يصح كتمها بحال

امّا تواريخ التراجم والطبقات فكثيرة العدد كالتواريخ السياسية الاَّ ان معظمها لم يطبع . ومع ان المسلمين كانوا اول الامم التي اجتهدت من وراء الغاية في تحرير السند ونقد الرجال ذهاباً بالسنة عن مظان الضعف نظروا في التراجم الى الجسديات لا الى الروحانيّات ومن السهل ان يتلبّس بالاولى من يريد ان يتلبّس فاختلط المرعيّ بالمهمل . والمجيدون المنصفون قلائل في المتأخرين والمتقدمين والنافع من كل شيء نادر

وممن اجاد في ترجمة الناس ابن خلكان في القرن السابع وقد قصر تاريخهُ على اعاظم العلماء والكبراء ممن اثّروا في حياتهم . وفي تاريخهِ نقرأ الاخلاص والصدق والعلم . وجاء الصلاح الكتبي وذيّل تاريخ ابن خلكان الاَّ انهُ عني بالشعراء خاصّة خشية ان تفقد تراجمهم لعدم

اشتهارهم وترك علماء اشتهروا وملأ كتابهُ بالقصائد والموشحات والمواليا وبعضها سقيم . ومنهم ابن ابي أُصيبعة المتوفى سنة ٦٦٨ كتب طبقات الاطباء وترجم جانباً ممن غلبت عليهم الفلسفة من الاعلام وتجافى كتّاب السير عن سرد اسمائهم في عداد مترجميهم لانهم لم يستحسنوا في غالب الظن ان يُطلقوا اسم العالم الاَّ على الفقيهِ والمحدّث والنحويـ والشاعر والزاهد امَّا الطبيب والمهندس والفيلسوف فلا حظَّ لهم من هذا الاسم ولا حق في تخليد اعمالهم

وكتب السخاويُّ كتاب "الضوء اللامع في تراجم اهل القرن التاسع" والنجمُ الغزيُّ كتاب "الكواكب السائرة في اعيان المائة العاشرة" والمحبيُّ "خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر" والمراديُّ "سلك الدرر في تراجم اهل القرن الثاني عشر" ويفضلهم السخاويُّ بصدق لهجتهِ وإقلالهِ من الاطراء وقلة تحاشيهِ من ايراد المساوىء برمتها . اما الغزيُّ والمحبيُّ والمراديُّ فانهم رفعوا قدر آبائهم وانسبائهم وحشروا في عداد العلماء من لا يسوغ عدُّهُ فيهم كفلان الصالح وفلان الخلاّط وفلان المؤذّن او المغني. ومع ان في ما دونوهُ عثرات تُتقى ففيها ايضاً فوائد تُنتقى . ذلك لقلة الظفر بتواريخ لاعصارهم فيها مشاهير الناس وخيارهم

ولقد ذهب بعضهم الى ان "قلائد العقيان" للفتح بن خاقان وذيلهُ "مطمح الانفس في ملح اهل الاندلس" و"يتيمة الدهر" للثعالبي و"ريحانة الالباء" للخفاجي "واعيان الشام" هي ايضاً كتب سير وحقيقتها انها كتب ادب فيها دقائق شعريَّة ورقائق نثريَّة وحوادث عصريَّة وليست من التاريخ في شيء. وللمؤلفين في كتبهم مقاصد لا ينبغي التسرّع في الحكم عليهم وعليها قبل افراغ الجهد في الاستقراء والاحاطة بخفيها وجليها

هذا رأيي فيما اطلعت عليهِ من تواريخ العرب اثبتهُ على علاّتهِ مخمّناً كان اوفطيراً وتركت الحكم على ما لم يسعد الحظ بالاطلاع عليهِ. بقي لي ان استفتي رجال العلم في ما اذا كان تاريخ العصر الحاضر يكتب كما كتب تاريخ العصر الغابر بلسان المحاباة والمداجاة او بلسان النَّصفة والاعتدال. نعم ان الجرائد اليوميَّة والصحف السيَّارة تسطِّر الحوادث غالباً ولكن اذا لم يتفلسف فيها فلسفة مجردة عن الغرض والعرض وتحفظ في كتب خاصة لا يبعد ان تضيع كما انتثر كثير من فصول التاريخ

ولعلَّ في المشهورين الثقات لعهدنا من يحسن كتابة تاريخنا على الاقلّ ان لم اقل التاريخ العام فقد كثر الاختلاط وانتشرت الصحف والكتب وقربت الاباعد حتى لم يعد عذر للمؤرخ بعدم تعرّضهِ لحوادث الارض كما يفعل المؤرخون في الغرب هذا العصر فيقرّبونهُ ما امكن من الاذهان ويفرغونهُ في قالب حسن من التنسيق والبيان

محمد كرد علي